"تسليم نقدي إجرائي"

القوميّة في شعر السيّاب
أوهام البحث وحقيقة النص

Nationalism in Al-Sayyab
Research Illusion or Text Truth

أ.م.د. كريم مهدي المسعودي
العراق/ جامعة القادسية / كلية التربية
قسم اللغة العربية

Assist. Prof. Dr. kareem M. Al-Masaudi
Iraq / University of Qadisiya Faculty of Education
Department of Arabic Language

تاريخ التسليم: ٩/ ٨/ ٢٠١٧
تاريخ القبول: ٢٢/ ١٢/ ٢٠١٧

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

الملخص

ينطلق هذا البحث من مراجعة لما أجمع عليه دارسو حياة السيّاب وشعره من كون الشاعر قد تحول (فكريًّا) باتجاه قوميٍّ بعد انفصاله عن (الحزب الشيوعي)، وأنه كتب قصائد عبّرت عن هذا التحول، وكشفت عن هذا الاتجاه.

فهل كان السياب قومياً؟ وهل تنطوي قصيدة(المخبر) على موقف(قوميّ)؟ وهل يمكن أن يكون (أنشودة المطر) ديوان السيّاب القوميّ ؟! وهل يُقبَل أن تكون قصيدة (غريب على الخليج) قصيدة قوميّة؟!، وهل تتضمن قصيدة(يوم الطغاة الأخير) أيّة إشارة أو فكرة إلى قضيّة قوميّة غير إهدائها(من ثائر عربي إلى رفيقته في تونس)؟! ثم ...أكانت قصائد السياب عن (الجزائر) تصدر عن توجُّهٍ (قوميّ) أم تنطلق من همّ (وطنيّ)؟.. وبم تُفسَّر قصائده عن (فلسطين) في بواكير شعره؟.. وكيف نقرأ قصيدته الذائعة(بور سعيد) بعد العدوان الثلاثيّ على مصر؟

إن هذا البحث محاولة لإجابة هذه الأسئلة، وغيرها من جانب، وإثبات أوهام الباحثين حول (قومية) السيّاب التي لا ننكرها انتماءً لعروبته، بل نردّ على الباحثين الذين يرون القوميّة لديه عقيدةً فكريّة ، واتجاهاً سياسيّاً. وسيعتمد هذا الرد تحليل القصائد أساساً لإثبات أحكامه ونتائجه.

Abstract

There is a consensus among scholars interested in the poetry of Al-Sayyab that he shifted towards nationalism after his departure of communism; this is(as they believe) well observed in the poems that he wrote. Such poems include: The Detective, Ode to Rain, A Stranger on the Gulf, Last Day of the Tyrants. This is besides his poems on Algeria, his earlier verse on Palestine, and his well-known poem entitled Boor Saeed after the triple aggression on Egypt.

The researcher, however, totally questions this; he therefore tries to prove that such scholars are under illusion. The fact for him is that nationalism for Al-Sayyab is not just a dogma or a political trend but a sense of belongingness to his Arab mother nation.

The methodology adopted in this research depends on the analysis of the above poems to validate its results.

المقدمة

قد يمكن القول: إنّه لم يتهيأ لشاعر عربي- قديماً وحديثاً- إلاّ المتنبي أن يحظى باهتمام النقاد والباحثين كما تهيّأ للشاعر بدر شاكر السياب، ويكفي أن ننظر في محاولات توثيق الدراسات والبحوث والمقالات التي كُتبت عنه ليتأكد لنا ذلك[1]، ولعل دراسة (الخطاب النقدي حول السياب) دليل على غنى الدراسات النقدية التي قاربت شعر السياب، وتعدد اتجاهاتها[2]. وما تزال بشعره حاجة لدراسات جادّة أخر، هو جدير بها.

ولكن مراجعة عدد من القضايا التي أثارتها تلك الدراسات تستحق أكثر من وقفة ، فقد شاعت أفكار حول السياب وشعره، ولم تعد موضع نظر وكأنها من المسلّمات التي لا تقبل دحضاً على الرغم من عدم دقتها أو صوابها، بسبب سوء فهم النص، أو العجالة التي تقود إلى أحكام لا تجد في شعر السياب ما يؤيدها!!

ومن تلك الأفكار أن السياب قد اتخذ من القومية (اتجاهاً) فكرياً وسياسيّاً بعد انفصاله عن الحزب الشيوعي العراقي. وهذا البحث محاولة لمراجعة هذه الفكرة لينتهي إلى رأي يمكن أن يدفع الباحثين إلى الكف عن التعامل معها، وكأنها مما لا يقبل رداً أو نقاشاً.

وقبل عرض الآراء التي تشير إلى توجه السياب القومي ومناقشتها، لا بد من ذكر مسألتين:

أما الأولى: فهي أن هذا البحث لا يعترض مطلقاً على اعتزاز السياب بعروبته، ولكن الاعتراض مُنصبٌّ على عدّ هذا الميل الوجداني الفطري (عقيدةً سياسيّةً)، أو توجّهاً أيديولوجياً، وأنّه جاء بسبب اختلاف السياب مع الحزب الشيوعي

الذي كان منتمياً له، أو ردّ فعل على مواقف رفاقه في الحزب"فقرر قطع صلته بهم والخروج من إطار الحزبية الضيقة إلى فضاء القومية العربية"[٣].

وأما الأخرى: فهي أن الفكرة-أي فكرة- حينما تشيع وتترسخ تصبح من(المسلّمات) التي لا يعود البحث عمّن أسس لها، أو أول من قال بها مهمًّا أو ذا جدوى، ولقد صار القول بقومية السياب من تلك الأفكار، ولم تعد بالباحثين حاجة إلى التوثيق عند ذكرها!.

وربما يكون البحث عن الأسباب التي أدت إلى القول بهذه الفكرة وترسيخها في الأذهان أهمّ وأجدى، ويمكننا أن نفترض سببين- فضلاً عما ذكرناه من العجالة وسوء الفهم- يقفان وراء ذلك:

يمثل أحدهما، في أن انفصال السياب عن الحزب الشيوعي، وكتابته قصائد تشير إلى إحساسه بالإحباط - بعد عجز ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨م، التي بشّر بها، وناضل من أجل قيامها، عن تحقيق أحلامه الكبيرة- قد يكون سبباً في عدِّ الباحثين أيةَ إشارةٍ في قصائده تتعلق بما يجري في العالم العربي التزاماً، أو انتماءً، أو تحوّلاً فكريّاً قوميّاً!.

وأما الآخر: فيتمثل في أن عدداً من الباحثين والنقاد القوميين- ولاسيما العراقيين، والمصريين- كتبوا أبحاثهم ودراساتهم في حقبة لا شيء يعلو فيها لديهم فكرياً على القول بالقومية، فكان ذلك دافعاً للبحث عن التوجه القومي لدى الشعراء اللامعين حتى القدماء منهم كالمتنبي، والشريف الرضي على سبيل المثال[٤]، والسيّاب شاعر كبير ومجدِّد، وإثبات(توجُّهِه) القوميّ إعلاءٌ من شأن(توجُّههم) القوميّ، ولا شك!!

إنّ هذا البحث لم يلجأ إلى محاورة الأفكار معزولة عن(النص) الذي قادت (قراءته) إلى هذا الحكم أو ذاك، وإنّما اعتمد ما يقوله النص، وراعى سبر(اللغة الشعرية) التي أنتجت دلالته الكلية. وليس يخفى أنّ من هذه النصوص ما لا يحتاج إلى عميق تأمّل، ودقة نظر وتأويل، لأنّها واضحة المعنى، مكشوفة الدلالة بسبب لغتها غير الشعريّة التي لا تحتمل تعدد القراءات، بل هي مما تستنفده قراءة عابرة إذْ تساوي ألفاظُها معانيها، ولا تكتسب معنىً جديداً يتحقق بالتشكيل الشعري الذي ينأى بها عن معانيها المحدَّدة. وفيها نصوص لابدّ من التلبّث عند لغتها للكشف عن دلالتها، ولكنّ ذلك سيؤكد للقارئ الكريم ألاّ موقفَ قوميّاً، ولا التزامَ سياسيّاً، وفيها قصائد تعبّر عن مشاعر العربي بدر شاكر السيّاب مما يجري في الواقع العربي، ولكنّها كُتبت قبل انفصاله عن الحزب الشيوعي. وأكثر من هذا أنّ فيها ما كُتب قبل أن ينتمي السياب للحزب!!

والبحث إذ يحاول ردَّ ما قال به الباحثون من التزام السيّاب القوميّ فكريّاً وسياسيّاً، فإنّه يتضمن دعوة للاحتكام إلى النص في إصدار الأحكام، أو إثبات الآراء، فللنص- حين تتكشّف دلالته بالقراءة الواعية الدقيقة- حقيقته التي تدفع(أوهام) البحث الذي يتابع رأياً سابقاً بلا مراجعة، أو يُصدر حكماً بغير تأمُّل النصِّ الذي يدور حوله.

أول الوهم

تشير الدراسات التي عنيت بحياة السياب إلى انتمائه إلى الحزب الشيوعي في مرحلة مبكرة من حياته، وكان ذلك بين عامي ١٩٤٥- ١٩٤٦ تقريباً، ولم يكن انتماؤه مؤسَّساً على وعي عميق، أو منطلِقاً من ثقافة جادة، بل جاء لدواعٍ تؤكد جميعها سذاجة السيّاب السياسية(٥). و لم يتحدد تاريخ ثابت لانفصاله عن الحزب كذلك، فقد ذكر عيسى بلاطة عام ١٩٥٤ تأريخاً مفتَرضاً لذلك الانفصال بقوله:"وانفصل بدر عن الشيوعيين وتشكيلاتهم، حتى أنه لم يوقّع على نداء أنصار السلام بعد هذه القصيدة[يعني قصيدة المومس العمياء]. لكن نشاطاته الأدبية ظلت ملتزمة، وظلت تدافع عن قضية الحرية والحياة الفضلى للجماهير الكادحة في العالم"(٦). غير أنّ بحثاً متأخراً يُثبت عام(١٩٥٧) تأريخاً للانفصال إذ يردُ أن السياب «طُرد من عمله بسبب نشاطه السياسي في صفوف الحزب الشيوعي الذي انفصل عنه عام/١٩٥٧/ بُعَيد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي والحوادث الهنغارية التي وقعت عام/ ١٩٥٦/ »(٧).

وربما تُركتْ مدة الانتماء غائمةً لإدخال القصائد التي توحي بموقف(قوميٍّ) ضمن قائمة القصائد التي قالها بعد الانفصال أو بسببه، كما سنرى لدى عبد الجبار البصري، وقيس الجنابي، ولكن هل تُحدث معرفة تاريخ الانتماء والانفصال فرقاً في ما نحن بصدده؟

لقد كتب السياب قصيدة(في يوم فلسطين) في عام ١٩٤٨:

يـا راقصـين عـلى دم الصحـراء

قـد آن يـوم الثـورة الحمـراء

تلك الشرارة بعد حين تنجلي

عـن زاجـر بالنـار والأضـواء

اليـوم يحطـم كل شـعب ثائـر

سـود القيـود بضحكـة اسـتهزاء

والقدس ما للقدس يمشي فوقها

صهيـون بـين الدمـع والأشـلاء

يـا أخـت يعـرب لـن تـزالي حـرة

بـين الـدم المسـفوك والأعـداء

ثـارات أهلـك في دمانـا تلتظـي

هيهـات ليـس لهـن مـن إطفـاء(٨)

وهو في أول عهد الانتماء الحزبي، وما يعنيه ذلك من حماسة لأفكار الحزب والتمسّك بها، فهل كان(شيوعيًّا)، و(قوميًّا) في آنٍ؟!

ولم يُشِرْ عبد الجبار البصري إلى هذه القصيدة ضمن ما أسماه بـ(قوميّات السياب)، لأنها تتناقض مع قوله بأن قصائد السياب القوميّة لم تُكتَب إلا بعد انفصاله عن الحزب الشيوعي، على حين وجد قيس الجنابي لهذه (المشكلة) حلًّا بتبنِّيه فكرة أنَّ السيّاب المنحدر من ريف الجنوب العراقي يمتلك حتماً مشاعر قوميّة، وينتمي فطريّاً إلى جذوره العربية، ولا يمكن أن يتجرد عن الحسِّ القوميّ، وراح يذكر عدداً

من القصائد من بواكير السياب تقف إلى جانب الحركات الوطنية بوصفها قصائد تعبِّر عن حسٍّ قوميٍّ، ومن تلك القصائد(شهداء الحرية)، وفيها-كما يقول- «ذلك التواصل بين حب الوطن وتبجيل الأمة العربية، فهو يقول عن يونس السبعاوي وصحبه:

اذا ذكـروا في جحفـل الحرب(يونسـاً)
مشـى المـوت للأعـداء حمـرا سـبائبُه
لقـد بـاع للعـرب النفـوس ثلاثـة
فقَـرّوا ودمعـي لا تقـرُّ غواربُـهْ
فـآهٍ عـلى مـن ودَّع الصحـبَ واغتـدى
على(يونـس) فليطلـق الدمـعَ حاجبـه
وآهٍ عـلى نـسر أهيـض جناحُـه
وكـم مـلأت أفـقَ العـراق عصائبـه

ويقول عن (رشيد عالي الكيلاني):

رشـيد ويـا نعـم الزعيـم لأمـة
يعيـش بهـا عبـد الإلـه وصاحبـه

...ومن القصائد ذات الحس القومي المبكر من مجموعته (أعاصير) القصائد(عربد الثأر فاهتفي يا ضحايا، حطمت قيداً من قيود، أعاصير)..»[٩]، وليس في القصائد كلها أيُّ شيء يوحي بموقف، أو حسٍّ، أو شعور قوميٍّ بأي

صورة أبداً. ويبدو أن ذكر كلمة(للعرب)، و(أمّة) هي دليل الباحث على الحسّ القوميّ على الرغم من أنَّ (القوميَّ) لا يرفض شيئاً رفضه أن يقال(الشعوب العربية)، فكيف يقبل أن يكون(الشعب العراقي) أمّة؟!

وهو يرى أن قصيدة (في يوم فلسطين) عبّرت عن موقف مبكر....لكنها لا تختلف عن القصيدة السابقة في مقارعة المستعمرين والتنديد بهم ومباركة الوطن والثناء على الأمة:

يـا أخـت يعـرب لـن تـزالي حـرة
بـين الـدم المسـفوك والأعـداء»[١٠]

والغريب أن الباحث يقول عن هذه القصائد نفسها: "وأكثر ما تكشف عنه هذه القصائد، أن ثقافته(يقصد السياب) السياسية بدأت تنمو وطفقت بعض المصطلحات السياسية تتخلل شعره لتعبر عن آرائه، وربما شكلت بداية تنامي ثقافته التي ستنقله إلى مرحلة الانتماء إلى الحزب الشيوعي...ومن هذه المصطلحات السياسية(الأمير، والعملاء، والحليف، والأمة، وطغمة، والغوغاء، وواقع، والحليفة، والثورة الحمراء، والمستعمرون، والطغاة، والكادحون، وثورة، وانتصار، وشعوب، والمستبد، والسفير، والمستشار)، وما يلاحظ على هذه المصطلحات أن جلها مما تعلمه السياب من الحركة الشيوعية(!!)، لأنه لا توجد أحزاب قومية تسيطر على الساحة السياسية بإمكانها الوصول إلى أرجاء الوطن كافة، فالفراغ السياسي كان أحد أهم الأسباب التي دفعته للتثقف بهذه الثقافة التي ستجرُّه في القصائد القادمة إلى أحضان الشيوعية(!!).."[١١]، ولا أحسب علاماتِ التعجُّبِ التي وضعتها تكفي للتعبير عن غرابة هذه الأقوال، فهذه (المصطلحات) مما يتردد

على ألسنة الناس كلِّهم أجمعين في زمن السياب وبعده، فهل صار الناس كلُّهم شيوعيين؟!! ثم إنّ قصيدة(شهداء الحرية) من القصائد التي كتبها في عام ١٩٤٢ أي قبل أن ينتمي الشاعر للحزب، فكيف يتعلم هذه(المصطلحات) من الحركة الشيوعية؟ وكيف يتثقف بثقافة الشيوعيين التي(ستجره) إلى أحضان حزبٍ لم يُعلَن عنه بعد؟! بل متى بدأ فعل التثقّف، أو كم كان للسياب من العمر حتى تمّ له التثقّف بثقافة حزب كالحزب الشيوعيّ، وهو قد كتب القصيدة في السادسة عشرة من عمره ؟!!

وفي أية حال فإن أحداً غير الجنابيّ لم يقل بقصائد تعبر عن موقف، أو(حسٍّ) قوميٍّ قبل انفصال السياب عن الحزب الشيوعي الذي ظل تاريخه خاضعاً لافتراضات لا يقوم عليها دليل!

وتجدر الإشارة إلى أنّ ما كتبه السياب عن القضية الفلسطينية- ولقد كتب عنها أثناء انتمائه، وبعده- سواء في ذلك ما يتصل باحتلال فلسطين كقصيدة (في يوم فلسطين)، أو ما يخصّ النازحين، وما تعرضوا له من ظلم وقهر وهوان كقصيدة (قافلة الضياع) لا يؤكد التزاماً قوميًّا- بالمفهوم السياسي- لأنها قضيّة عربيّة إنسانيّة كبرى، ليس ينبني على الكتابة عنها أيّ التزام سياسيّ. ولقد كتب عنها الشعراء

العرب منذ بدأتْ، ولا يزالون يكتبون على اختلاف انتماءاتهم السياسية، واتجاهاتهم الفكرية، ومذاهبهم العقائدية!

الإجماع:

لقد أجمع الباحثون على أن ديوان(أنشودة المطر) يضم قصائد السياب القوميّة، وسنكتفي –مبدئيّاً– بذكر ما جاء لدى عبد الجبار داود البصري الذي يمثّل خلاصة الآراء التي تشير إلى تلك القصائد، وما بُنيَ عليها من الحكم بالتزام الشاعر القوميّ بعد انفصاله عن الحزب.

يرى البصري أن ديوان(أنشودة المطر) يضمّ قصائد مرحلتين من حياة السيّاب الشعريّة «المرحلة الأولى هي الرابعة في تسلسل مراحله الشعرية(١٩٥٠-١٩٥٣)... والمرحلة الثانية وهي الخامسة في تسلسل مراحله الشعرية(١٩٥٤-١٩٥٨) وكان عطاؤه فيها موزعاً على ثلاث فئات(هي) فئة الجيكوريات...وفئة أغاني الموت... وفئة القصائد القوميّة التي تتمحور حول إشكالية الوعي العربي الجديد.. ويمكن تفسير كتابة هذا اللون بما يأتي:

إن المرحلة التاريخية في الخمسينيات كانت مرحلة الثورة العربية من المحيط إلى الخليج بدءاً بالثورة الناصرية...وانتهاءً بثورة ١٤ تموز في العراق.

عودة السياب من إيران والكويت وقد خذله رفاقه الشيوعيّون فقرر قطع صلته بهم والخروج من إطار الحزبية الضيقة إلى فضاء القومية العربية.

ارتباط السياب ثقافياً بمجلة(الآداب)البيروتية التي كانت تتبنى الاتجاه القوميّ في الأدب...

زواج السياب واستقراره النسبي الذي جعله أكثر ارتباطاً بالقيم العربية والإسلامية(!!)...

وقوميات السياب لا تتجاوز تسع قصائد هي:

المخبر، ويوم الطغاة الأخير، من قصائد عام ١٩٥٤.

قافلة الضياع، ورسالة من مقبرة، وفي المغرب العربي، وبور سعيد، من قصائد عام ١٩٥٦.

قارئ الدم، من قصائد عام ١٩٥٧، وتمتد هذه القصائد إلى عام ١٩٥٩ حيث يكتب قصيدة إلى جميلة بوحيرد، ثم قصيدة ربيع الجزائر عام ١٩٦٢ويتوقف بعد ذلك عن كتابة هذا اللون من الشعر العربي الملتزم»[١٢] والغريب أنه لا يذكر هنا قصيدة(المومس العمياء) التي عدّها القائلون بالتزام الشاعر القوميِّ سبب قطيعته مع الحزب الشيوعيِّ!.

وإذا كان الإجماع على كون ديوان (أنشودة المطر) يشتمل على القصائد القومية، فإن الاختلاف على تحديد هذه القصائد واضح ومقبول، ولكن الباحثين والنقاد جميعاً متفقون على أن قصيدة (المخبر) من هذه القصائد.

يقول واصف أبو الشباب: «من الواضح أن الشاعر يتصدى في قصيدته هذه(المخبر) إلى السلطة الحاكمة، وهو في مواجهته يتخذ الموقف القومي مجالاً للتعبير عن رؤية واضحة عميقة(!)، فهو مع نضال الشعب التونسي وثوار الجزائر، وفدائيي القنال... وهو في الوقت نفسه ضد السلطان الظالم الديكتاتوري(!) الذي يراقب خطوات الشاعر وأمثاله من المثقفين الذين يقفون ضد الظلم»[١٣] .

ويقول قيس الجنابي: في القصيدة «تواصل بين السياب والنضال العربي في تونس والجزائر ومصر ضد الاستعمار، وذلك عبر صورة واحدة لا توظف الرموز وإنما تعتمد على إيراد المعنى المراد بلغة جزلة(!) تبتعد عن الشعاريّة والمباشرة وتسمو إلى التعبير الفني المتزن الذي لا يوغل إلى الرمز الأسطوري(!) وهذه فضيلة من فضائل الشعر السياسيّ(!)..»[١٤].

ويرى عبد الكريم حسن أن قصيدة(المخبر) تمثّل- مع قصائد أخر يذكرها- بداية انعطافة السياب نحو القوميّة[١٥].

والقول بـ(قومية) السياب مبني على المقطع الآتي، أو على بعض ما جاء فيه:

«وتقول:أصبح لا يراني»...بيدَ أنَّ دمي يراك

إني أحسُّك في الهواء وفي عيون القارئين

لِمَ يقرأون: لأن تونس تستفيق على النضال؟

ولأن ثوار الجزائر ينسجون من الرمال

ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين

كفنَ الطغاةِ؟ وما تزال قذائف المتطوّعين

يصرخْنَ في غسق القنال؟.

لَمَ يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حينْ

كالشامتين؟ سيعلمون من الذي هو في ضلالْ

ولأيّنا صدأ القيود»[١٦]

إنّ قراءة هذا المقطع قراءة دقيقة تؤكد أنَّ الكلام يصدر عن(المخبر) نفسه، وقد حالت(الجريدة) بينه، وبين(الشخص) الذي يلاحقه، والحوار هنا ذاتيّ في ما يسمّى بـ(المنولوج)، ويجيء ذكر(النضال العربي)على وفق ما يستدعيه(تداعي الأفكار) إذ يجرُّه فعل القراءة، أو تطلّع الحاضرين إلى(أخبار) الجريدة إلى ذكر هذا النضال؛ لأنّه جزء من الجريدة، ولا علاقة للسياب بالمسألة؛ لأن القصيدة تنفرد بصوت المخبر راوياً أو (بطلاً)، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن(البؤرة) التي تنطلق منها خيوط القصيدة هي(الفقر)، والدلالة الكلية التي ترشحها القصيدة هي(انسحاق كرامة الإنسان)تحت وطأته، والمخبر نفسه- في هذه القصيدة – يجلد ذاته على امتداد مقاطع القصيدة، ويحتقر نفسه لعلمه باحتقار الآخرين إياه، ولا يجد مهرباً من تأنيب الضمير إلا بتسويغ عمله الحقير بالفقر الذي لا يقوى على احتماله:

«سحقاً لهذا الكون أجمع وليحلّ به الدمارْ!

مالي ومال الناس؟ لست أباً لكل الجائعينْ

وأريد أن أروى وأشبع من طوىً كالآخرينْ

فليُنزلوا بي ما استطاعوا من سباب واحتقارْ

لي حفنة القمح التي بيدي ودانية السنينْ

-خمسٌ وأكثر...أو أقلُّ – هي الربيع من الحياة

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاةْ

روحَ النماء، وبالبيادر وانتصار الكادحينْ

فليحلموا إن كانت الأحلام تشبع من يجوع.

إني سأحيا لا رجاءَ ولا اشتياقْ ولا نزوعْ،

لا شيءَ غير الرعب والقلق الممضِّ على المصيرْ

ساء المصيرْ!

ربّاه إنّ الموت أهون من ترقُّبِه المريرْ

لِمَ كنتُ أحقر ما يكون عليه إنسانٌ حقيرْ؟!»[١٧]

وفي ضوء ذلك يبدو لنا أن شيئاً من العجالة في قراءة القصيدة أسهمت في أن لا يُلمح غير ظاهر المقطع، فعُدّ ما فيه (موقفاً) قومياً، ولربما جرَّ بعض الباحثين غيره إلى هذا الفهم!!. والشيء نفسه يقال عن قصيدة(المومس العمياء) ، التي تكاد تكون لوحة للبؤس الإنساني الذي يؤلف الفقر بؤرتها، ويمنحها ظلالها القاتمة. وليس في القصيدة ما يشير إلى (القومية)- وقد كتبها حينما كان شيوعيّاً!!، ولكن رفاقه «أبدوا شيئاً من التردد في قبول(المومس العمياء))..»[١٨] التي تتضمن المقطع الآتي:

«للموت جوعاً، بعد موتي- ميتةَ الأحياء-عارا.

لا تقلقوا...فعمايَ ليس مهابةً لي أو وقارا.

كالقمح لونُكِ يا ابنة العربِ

كالفجر بين عرائش العنبِ

أو كالفراتِ، على ملامحِهِ

دعةُ الثرى وضراوةُ الذهبِ.

لا تتركوني.. فالضحى نسبي:

من فاتح، ومجاهد، ونبي!

عربية أنا: أمتي دمها

خير الدماء ..كما يقول أبي.» [١٩]

بسبب هذا المقطع تردد رفاق السياب الشيوعيّون في قبول القصيدة، ولأنه كان ساخطاً عليهم، فقد نشر مقاطع- منها المقطع السابق- في مجلة يصدرها بعض القوميين، وكانت المفارقة المُرّة أن» بعض الرفاق(وأكثرهم من أصل إيراني) هنأوه عليها، لأنه غمز من قناة العرب وأسطورة العرض والشرف الرفيع.... فأحسَّ في سرورهم أنه يُكاد ولا يكيد، وأنه قد عرّض قومه للشماتة، فأراد أن يرد الصاع بمثله، فلما نشر القصيدة كاملة في كراسة مستقلة، كتب تعليقاً على ذلك المقطع يقول فيه: ((ضاع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشوفينيين، يجب أن تكون القومية شعبية والشعبية قومية...أ فليس عاراً علينا نحن العرب أن تكون بناتنا بغايا يضاجعهن الناس من كل جنس ولون؟))..»[٢٠]، فأين موقع(قوميّة السياب) من هذا المقطع؟ وكيف يقال: إنه كتب قصائده(القوميّة)- والمومس العمياء منها- إعلاناً عن توجّهٍ قوميٍّ ردّاً على الحزب الشيوعيّ؟. إن ما يذكره إحسان عباس يشير إلى أنّ السياب نفسه لم يكن ملتفتاً إلى تضمُّنِ القصيدة شيئاً يتعلق بالقومية، ولكن(ارتياح) ذلك الرفيق الإيراني لأن تكون(المومس) عربية، وتتفاخر بنسبها هو ما حرّك(نخوة) السياب العربية في ما يبدو!!.. والمقطع- في سياق القصيدة- يأتي على لسان هذه الفتاة التي تستجدي من يعاشرها من(السكارى) مدفوعة بفقرها الذي قُتل أبوها بسببه، وخسرت هي كرامتها، ومعنى إنسانيتها. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه القصيدة- ومثلها قصيدتا المخبر، وحفّار القبور- تؤكد الحس الوطني العميق لدى السياب عبر

معاينة الواقع العراقي غير بعيد عن معاناة الإنسان المثقل بالفقر المهين، والكشف عن مأساة(المهمّشين) الذين يسحق الفقر كرامتهم، ويأتي على روح الإنسان في أعماقهم حين لا يجدون في الوطن المترع بالخيرات ما يسد جوعهم، أو يدفع عنهم الهوان:

ويحَ العراق! أكان عدلاً فيه أنّكِ تدفعينَ

سهادَ مقلتك الضريرة

ثمناً لملء يديكِ زيتاً من منابعه الغزيرة

كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرينْ؟

عشرون عامًا قد مضين، وأنت غرثى تأكلينَ

بنيك من سَغَب، وظمآى تشربينَ

حليبَ ثديك وهو ينزف من خياشيم الجنينْ! (٢١)

وطنية السياب أم قوميته؟

تنطوي قصيدة (بور سعيد) على موقف عربي أصيل يمثّله السياب في تضامنه مع الشعب المصري، وهو يجد في تحدّي(بور سعيد) الموتَ والدمار، وفي تصدّي أهلها وعدم استسلامهم لبطش العدو، ما يعيد للعربيّ إحساسه بالمجد الذي ظلّ مرتبطاً بالماضي، بلِ يرى أنّ ذلك المجد كان سينهدُّ بسبب خزي الحاضر لولا(بور سعيد):

يــا مرفــأ النــورِ، مــا أرجعــتِ وادعــة

مــن غــير زادٍ، ولا آويْــتِ قرصانــا

ولا تلفّظـتِ مــن مرســاك معتديــاً
إلاّ مدمَّــىً ذليــلَ الهــام خَزيانــا

فالوَيْلُ...لــو كان للعاديــن مــا قَـدَروا
لانْهــدَّ مــن حــاضرٍ مــاضٍ فأخزانــا[٢٢]

ولقد سبق لي أن وقفت على قصيدة(بور سعيد)، وقصائد السياب عن الجزائر، وهي أكثر القصائد وضوحاً في تضمّنِها(موقفاً قومياً)، وانتهيت إلى أن منطلق السياب(وطنيٌّ)، وهو يستشرف أفق النضال(العربيّ)[٢٣].

وعلى الرغم ممّا ذكرته عن قصيدة(بور سعيد)، فإنّها تجسّد هذه الرؤية- وإنْ بدرجة أقلّ من قصائد الجزائر- «فالبعد الوطني مركوز في عمق القصيدة. إن الشاعر يضيق بشعبه الذي لا يثور، فيرمي إلى(بور سعيد) الصامدة المجاهدة بنظرة الضراعة علّها تمدُّه بما يُعينُه على أن يثور العراق، وفي بناء القصيدة ما يرشح ثنائية(اليأس) في الداخل، و(الأمل) الذي تنسج خيوطه بور سعيد، إذ تعتمد المقاطع التي تنطلق من هذه المدينة العربية المجاهدة النهج العربي القديم في بناء القصيدة، وتستشرف تاريخ الأمة في أعمق تجليات القوة والحزم حضورًا، في حين تأتي المقاطع التي تشير إلى واقع الشاعر في وطنه مبنية على وفق البناء الشعري الحديث، وهذه المقاطع تنطوي على دلالات القهر والعجز، وكأن السياب يرى في التاريخ الذي ينبئ بالقوة والمجد (أصلاً) ثابتا، وفي حالة الضعف والاستسلام(فرعاً) طارئاً!»[٢٤]، ولئن اختار الشاعر في المقطع الحماسيّ الأول أن يتكلّم بضمير المتكلمين:

يـا حاصـد النـار مـن أشـلاء قتلانـا
منـك الضحايـا وإن كانـوا ضحايانـا

إنّ القارئ ليجد في ختام القصيدة ما يختزل عجز الشاعر الذي أثارت (بور سعيد) حماسته ونخوته العربية حين لا يجد غير الكلمات ما يجود به، فيعود إلى ذاته الفردية باستعمال ضمير المتكلم، وكأنه يعتذر بضعف من يتكلم باسمهم:

يـا قلعـة النـور تَدمَـى كلُّ نافـذةٍ
فيهـا تلظّـى، ولا تستسـلم، الحُجَـرُ
أحسَسْـتُ بالـذُّلِّ أن يلقـاكِ دونَ دمي
شِـعري، وإنّي بـما ضحَّيـتِ أنتـصُر
لكنّهـا باقـةٌ أسـعى إليـكِ بهـا
حمـراءُ يخضـلُّ فيهـا مـن دمـي زهَـرُ! (٢٥)

وفي قصائده عن الثورة الجزائرية وبطلتها(جميلة بوحيرد)، يجد السياب وطنه(قبراً) يسكنه(أموات) لا يشعرون بموتهم، أو لا يريدون الاعتراف به، فيتجه صوب الجزائر التي تمور بالحركة والحياة والثورة، وكأنّه يستمد منها قبساً من تلك الحياة، أو شرارة من الثورة لشعبه الذي لا يريد أن يُحطِّم أغلاله، ففي قصيدة (إلى

جميلة بو حيرد) إدانة لواقع الوطن، فالناس أموات لا يستجيبون لنداء الثورة، أو صرخة الثوار التي تعلنها جراحهم:

إنّا هنا ..... في هوّة داجية

ما طاف لولا مقلتاكِ الشعاعْ

يوما بها نحن العراة الجياعْ

إنّا هنا كومٌ من الأعظُمِ

لم يبقَ فينا من مسيل الدمِ

شيءٌ نروّي منه قلب الحياةْ

إنّا هنا موتى، حفاةٌ عراةْ

لا تسمعيها إن أصواتنا

تخزى بها الريحُ التي تنقلُ

بابٌ علينا من دمٍ مقفلُ

ونحن في ظلمائنا نسأل:

«من مات؟ من يبكيه؟ من يُقتلُ؟»(٢٦)

وتأمُّلُ خاتمة القصيدة يؤكد أن منطلق الشاعر(وطنيٌّ) حين يكتب عمّا هو(قوميٌّ):

إنا سنمضي في طريق الفناء

ولترفعي (أوراس) حتى السماء

حتى تُروّى من مسيل الدماء

أعراق كل الناس، كل الصخور

حتى نمسَّ الله

حتى نثور!» (٢٧)

إنّ هذه القصيدة–والقصائد الأخرى التي كتبها عن الجزائر– تتضمن توقه إلى أن يجد في الموقف الثوري الذي بدأت تباشيره تظهر هناك ما يحرّك سكون(القبور) في واقعه الوطني. وإذا أردنا أن نتحدّث عن(التزام)، فهو التزام الشاعر بشأن(الجماعة) من منطلق الحب الإنساني للمقهورين الذين يريد لهم السياب أن يحقّقوا حياتهم بالثورة على كلّ ما يستلب إنسانيّتهم، ويحيلهم أشباحاً تتحرك بلا روح، وظلالاً لكياناتٍ لا تنتمي لمعنى الإنسان الذي لا يكون بانعدام الكرامة. إنّه يرى في (جميلة بوحيرد) مثالاً مشخّصاً لتحدّي الموت والانتصار للحياة ، وليست فكرة ذهنية تدعو المضطهَدين لتحطيم أغلالهم كي يحيَوا كما يليق بالإنسان أن يحيا. وهذا اللون من الالتزام الإنسانيّ/ الشعريّ يكاد يكون جوهر ديوان(أنشودة المطر). وفي(رسالة من مقبرة) يشير العنوان ابتداءً إلى أن السياب لا يرى في وطنه إلا(قبرًا) يطبق على الشعب(الأموات)، كما يتضمن(الإهداء) – إلى المجاهدين الجزائريين – ضراعة الشاعر أن يتنبَّه(الأموات) من رقدتهم التي تعني قبولهم حياة الذل (وإلا فإنَّ الموت ليس حقيقيا)، وتبدأ القصيدة بإشارة حادة إلى واقع ميت:

"من قاع قبري أصيح

حتى تئن القبور»

ثم تجيء المشاهد التي ترسم صور التسلط والظلم ومصادرة الحرية التي تشِلُّ الناس وتحيلهم أمواتاً، فما يكون من الشاعر – الذي اختار أن يكون شاهداً على الموت، ورافضاً إيّاه – إلا أن يصرخ بالأموات أن (الحياة) ممكنة:

" هذا مخاض الأرض لا تيأسي

بشراك يا أجداث حان النشور!

بشراك في (وهران) أصداء صور

سيزيف ألقى عنه عبء الدهور

واستقبل الشمس على (الأطلس)! "[٢٨]

ولكن ظلمة(الموت) أعمق من أن يبددها(قبسٌ) لا يُرى عياناً، ولا يستطيع أن يقتحم عالم الأموات، بل يعلن عن وجوده شاعر يضيع صوته بين القبور، ومن هنا تنغلق القصيدة بعد المقطع السابق مباشرة بسطر واحد يختزل معنى الألم والفجيعة:

"آه لوهران التي لا تثور!"

«ووهران هذه في خاتمة القصيدة ليست وهران الجزائر. إنما هي بغداد التي لا تثور»[٢٩] والسياب في قصائده التي قالها في الثورة الجزائرية «يعبر عن سخطه على الأوضاع في العراق، وأحيانا على شعبه الذي يرضى باستمرار هذه الأوضاع»[٣٠].

وآخر(جزائريات السيّاب) قصيدة(ربيع الجزائر) التي كتبها في ٢/ ٦/ ١٩٦٢م، أي بعد استقلال الجزائر مباشرةً، فما الذي ترشّحه قراءة متأنيّة للقصيدة؟

إنّ عنوان القصيدة يوحي ابتداءً بالبهجة، وهو ما يتفق ظاهراً مع المناسبة التي تعيشها الجزائر بخلاصها من الاحتلال، ولكنّه يخلق(مفارقة) صادمة مع نصّ القصيدة الذي يتّشح بالحزن، ويوحي بالفجيعة، وقد بُنِيت القصيدة على ستة مقاطع. جاء الأول والثاني منها منسجمَين مع المناسبة، ففي الأول تحيّة للجزائر بانتهاء الحرب، ومجيء الغيث الذي يروّي الثرى الجائع للبذور:

سلاماً بلادَ اللظى والخراب

ومأوى اليتامى وأرض القبور

أتى الغيث وانحلّ عقد السحاب

فروّى ثرىً جائعاً للبذور... (٣١)

وفي المقطع الثاني، تصوير لنهاية ظلام الحرب، وحلول الفجر الذي يُطلُّ بتكبيرةٍ من آلاف المآذن حيث الأمان والسلام، بدل دويّ السلاح حيث الخوف والقتل:

وأصبحتِ في هدأةٍ تسمعينْ نافورةً من هتاف

لديكٍ يبشّرُ أنَّ الدجى قد تولَّى

وأصبحتِ تستقبلينَ الصباح المُطلاّ

بتكبيرةٍ من ألوف المآذن كانت تخافْ

فتأوي إلى عاريات الجبالْ

تُبرقع أصداءها بالرمالْ(٣٢)

هذا هو السلام الظاهر، وتلك هي مظاهر الربيع، ولكنّ المقاطع التالية تنبش ذاكرة الحرب، وترسم صوراً دامية لخرابٍ لا شيء يدلّ على أنّه سيزول. يبدأ المقطع الثالث باستفهام يبدو محايداً، وقد يوحي بالاستبشار:

بماذا ستستقبلينَ الربيع؟

غير أنّ الأسطر التالية على امتداد المقطع تدلّ جميعها على ألاّ إمكانَ لاستقبال الربيع، فلا شيء غير بقايا العظام البالية، وما يشير إلى الدمار. والصور الشعرية كلّها توحي بالحزن، والقهر، وتخلّف في الذات إحساساً بالمرارة. وهكذا تسير المقاطع الأخرى. إنّها الحرب التي تخنق(الروح)، وتأتي على(المعنى)، وتظلّ حاضرة ليس في آثارها الظاهرة: خراباً وقبوراً، ويتامى وأيامى، بل في ما تتركه في النفوس التي أرهقها الموت وسكنها الوجع، فلم تعد تشعر بطعم الحياة، وأثقلها الليل، فلم تعد تأنس بالصبح.

في القصيدة تشاؤم السياب ووجعه، فهو يُلقي بظلال يأسه على الصور الشعرية التي يرسمها للجزائر بعد (الاستقلال) [٣٣]. ولا تخفى العلاقة بين تاريخ كتابة القصيدة، ومعاناة السياب المرض الذي بات يستوطن الجسدَ وجعاً ممضّاً، والنفسَ يأساً مريراً. ويمكن للقارئ أن يلمس لوناً من السخرية المرّة، ليس في المفارقة الدلالية بين العنوان والنص فحسب، بل في الصور القاتمة التي توحي بالموت الذي يسري في كلّ شيء، وتجسّد اليأس الذي ينفي كلّ أمل. إنّ القصيدة إذ تبدأ بـ :

سلاماً بلادَ اللظى والخراب

ومأوى اليتامى وأرض القبور

لتنتهي بـ :

وها أنتِ تدمع فيك العيون

وتبكينَ قتلاك

نامتْ وغىً فاستفاق

بك الحزنُ: عاد اليتامى يتامى

سلاماً بلادَ الثكالى، بلاد الأيامى

سلاماً...

سلاما... (٣٤)

فإنّها تظل في دائرة الموت، وهذه النقاط(...) التي تجيء بعد لفظ (سلاما) الذي يتكرّر في سطرين مستقلَّين تشير إلى اتساع هذه الدائرة لما يوحي بالموت بلا نهاية، وكأنّ الشاعر سيعجزه عدُّ مظاهر الموت لكثرتها، لتكون النقاط بديلاً عن(إلخ) اختصاراً لعبارة(إلى آخره...)!. إنّ (ربيع الجزائر) هي قصيدة(الذات) التي صدّعها المرض، فأحالها جسداً هشّاً، كما صدّعتِ(الجزائرَ) الحربُ، فأحالتها حطاماً ، ومن هنا يحقّ السؤال: أين قضية(القوميّة) فيها؟!.

وأخر قصيدة لم يَختلف في أنّها من القصائد القومية الباحثون والنقاد جميعاً، باختلاف عباراتهم، هي(في المغرب العربيّ) المتميّزة: رؤيةً وبناءً. ولعلّ القول بأنّها قصيدة قوميّة يأتي لسببين:

فأمّا أحدهما، فرمزيّة القصيدة التي لا يختلف فيها اثنان، وهذه الرمزيّة تفتح أفق التأويل، وتوسّع دائرة اختلاف التفسير الرمزي. وأمّا الآخر، فعنوانها الذي يذكر(المغرب العربي).

وقد بلغت حماسة عدد من الباحثين لهذه القصيدة، وما تتضمنه من بُعدٍ قوميّ حدّاً يدفع من يقف عند الدراسات والبحوث إلى الاعتقاد بأنَّ خيوط القصائد السابقة عليها وجدت خلاصتها المكثّفة فيها، وأنّ ما جاء بعدها إنّما ينهل منها، وبعبارة أخرى، فإنّ القصيدة- لدى من كتب عنها- تؤلف(المثال) الشعري لالتزام السياب القوميّ. ولعلّ مثال هذه الحماسة يتحقق في قول بعضهم : " تقع هذه القصيدة في نطاق الالتزام القومي العربي... وفيها تجاوب حيّ عميق بين الشاعر والانتفاضات العربية التحرّرية في شمالي أفريقيا، في تونس، والمغرب، فضلاً على تجاوبه مع الفكر القوميّ العربي وشعاراته الآيدلوجيّة الحديثة"[٣٥]!! ويضيف أنّ السياب يتوقف أمام هذه الثورات" متوسّماً فيها الخير، معلّقاً عليها الآمال، مطمئنّاً إلى أنّ أمة العرب لم تمت، وأنّ إلهها المتمثّل في القومية العربية* ما زال مقيماً فيها ليدرأ عنها كلّ خطر يهدّدها بالفناء... وهكذا يصوغ السياب من التزامه القومي العربي... أنشودة قومية تمجّد مآثر العرب في اللغة والدين والعمران، والحضارة، والقيم الإنسانية، وتربط ربطاً قويّاً لا ينفصم بين ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها، وبين شخصيّتها وأرضها وحياتها بصورة عامة في التحام قوميّ متماسك" [٣٧]!!

وإذا أمكن أن نجد لحماسة القوميين العرب تسويغاً- بغض النظر عن قبوله من عدمه- فإنّ الأعذار كلّها تقف حائرة أمام حماسة باحثة إيرانية ذهبت كلّ مذهب في محاولة ليٍّ عنق النص لتوكيد التزام السياب القومي بإثبات قومية القصيدة، فليس" الرسول الأكرم ﷺ على المستوى القومي عند العرب نبيّاً فحسب، مبشراً بالإسلام، و ناظراً لتعاليمه، و إنما هو إنسان عربي، و قيمة عربية فاعلة، و ذروة في عطاء هذه الأمة، و إبداعها. و بقدر ما هو عنصر روحي اصطفته الإرادة الإلهية ليكون رسول الله إلى العالمين، هو أيضاً عنصر قومي عربي، وحصيلة إنسانية و حضارية في تاريخ

الأمة؛ لذلك اقترن اسمها باسمه، ما اقترن اسمه باسم الله، و شاع بين العرب اسم محمّد تدعو به أبناءها تيمناً و تقديساً و تخليداً لرمز حضارتها ووجودها القومي"[٣٨] وأكثر من هذا أنّها جعلت(الله) عزَّ وجلَّ عنصراً من عناصر(المجد العربي) الثلاثة المتلازمة: " الإنسان العربي، و العبقرية العربية التي أضحى الرسول الأكرم ﷺ رمزاً لها، والقيم الخلّاقة المبدعة خيراً و حقاً و جمالاً و قداسةً و عظمة و المتمثّلة في اسم الله»[٣٩]؛ لتستدلَّ على شعور السياب بموت هذا المجد تفسيراً لقوله:(فنحن جميعنا أموات: أنا ومحمّدٌ والله)... «غير أنه يستدرك بعد ذلك أن ما يراه من موت ليس حقيقياً، فالأمة التي صنعت ماضي العرب و تاريخهم و أمجادهم لا يمكن أن تموت»[٤٠]!!. ومن الواضح تماماً أنّها أخذت برأي أحمد أبو حاقة السابق، وبرأي سامي سويدان[٤١] الذي يَخلص من التحليل إلى أنّ الشاعر يتخذ من(الله) عزَّ وجلَّ رمزاً دالاً على الإنسان العربي الحضاري!.

ويبقى السؤال الذي يتفق مع ما نسعى إليه، وهو: هل يظهر في القصيدة، أو يتخفّى وراء كلماتها الظاهرة ما يشير إلى النضال في المغرب العربيّ؟ وإذا لم يكن ذلك متحقّقاً، فما الذي قاد الباحثين والنقاد إليه؟ يبدو أنّ للعنوان أثراً في الذهاب إلى(الظنّ) بأنّ القصيدة تمثّل خلاصة (الالتزام القوميّ) في شعر السيّاب، حين قرأ الباحثون القصيدة في ضوء عنوانها غير المعزولٍ عن شيوع انفصال الشاعر عن الحزب الشيوعيّ، فلم يلمحوا من العنوان(في المغرب العربيّ) إلاّ المعنى الظاهر الذي لا يحتاج نظراً، وتأمّلاً. ونقرأ القصيدة سطراً فسطراً[٤٢]، ولا نجد لحاضر(المغرب العربيّ) ذكراً، بل تُذكَر(الحمراء)- رمزاً من رموز الحضور العربي الماضي في الأندلس- مرّةً واحدة، في حين تحضر الرموز المشرقية(ذي قار، بغداد، الشام) من رموز المجد العربي الماضي كذلك، كما يحضر الإسلام(إلهاً، ونبيّاً، ورايةً،

وجيوشَ فتح)، فما علاقة هذا بـ(المغرب العربيّ) رقعةً جغرافيةً تدخل ضمن حدود (الوطن العربيّ) مصطلحاً حديثاً؟! وأين هي(تونس، والجزائر، والمغرب) التي تدور فيها معارك العرب ضد الغزاة لحظة كتابة القصيدة؟؟. إنّ قراءة النص في ضوء العنوان أسهمت في(الوهم) الذي عزّزه شيوع انفصال السياب عن الحزب، والقول بتحوّله الفكري باتجاه القوميّة. ولكنّ قراءة(العنوان) في ضوء النصّ تشير إلى(انحسار المجد)، فالعرب لم يحقّقوا مجدهم إلا بالإسلام، وحين تخلّوا عنه أضاعوا ذلك المجد، وغربت شمس حضارتهم ليدخلوا(في المغرب العربي) وقتاً، وعتمةً!.

قمة الوهم:

وتبقى من قصائده (القومية) التي لا يختلف في قوميّتها الباحثون والنقاد القائلون بتوجه السياب القومي قصيدة (يوم الطغاة الأخير)؛ التي كتب تحت عنوانها هذا الإهداء:(أغنية ثائر عربي من تونس إلى رفيقته)، ولن أعرض لها مكتفياً برأي إحسان عباس الذي يعبّر عن قراءته القصيدة- وليس الإهداء فقط كما فعل غيره في ما يبدو!!- إذ يقول:

"وليس في القصيدة أيُّ دلالة على تونس أو على أي مميزات خاصة تجعل الثائر عربيّاً، ولكن السياب كان يعلم أنه يتقدم إلى مجلة الآداب أول مرة، وأن للمجلة طابعاً خاصاً ونزعة معينة تحرص عليهما، فكان إهداء القصيدة تقرّباً إلى المجلة وقرائها"[٤٣] فهل يبقى مجال للشك في أن الحكم بـ(قومية السياب) قرار سابق لقراءة شعره، وأن كثيراً من الباحثين اكتفوا بمتابعة من سبقهم بغير العودة إلى قصائد السياب التي بُني عليها الحكم في أغلب الأحيان؟!.

زبدة المخض:

وفي ضوء ما سبق كله، يمكن أن نتلبث لنسأل: أين هي إذن(قومية) السياب: انتماءً فكريّاً، والتزاماًسياسيًّا، وهو ما قال به من وقف عند تلك القصائد؟!.

ولعلّ من المؤسف أن من كتب عن قوميّة السياب يعزو (توجّهه القومي) إلى خلافه مع(الحزب الشيوعي) الذي انتهى إلى انفصاله عنه، وكأن الأمر ردّ فعل على ذلك الحزب، وليس الأمر كذلك عند التأمل. إنّ انشداد السياب لجذوره العربيّة، ومشاعره المرتبطة بهذه الجذور أعمق من أن يُحسب توجّهاً سياسيّاً، وأبعد من أن يكون عقيدةً فكريّة، فالسياب- شأنه شأن أيِّ عراقيّ عربيّ لاسيما في ريف الجنوب العراقيّ- يتغذى فكره منذ طفولته على أنه عربيّ، ومعروف أن العناية بالأصول العشائرية، والولاء القبليِّ أصيله في الهويّة العراقيّة، ولعل في ثقافة السياب التراثية، وفي اهتمامه بالتاريخ العربيّ والإسلاميّ توكيداً على انشداده إلى جذور أصالته.

وما دام الأمر كذلك، فلا عجب أن يبرز اهتمام السياب بتراثه العربيالإسلامي من جانب، وبواقع النضال العربي المعاصر من جانب آخر حين يعالج واقعه الوطني لتذكير الشعب بأمجاد ماضيه، أو لتوجيه اهتمامه إلى ما يمارسه المناضلون والمجاهدون العرب في البلاد الأخرى من أعمال البطولة والفداء ضد الغزاة والمتسلطين لنيل الحرية، ومن هنا نرى منطلقَ السياب(وطنياً) في الشعر الذي يتضمن موقفاً (عربياً)، فهو يربط بين واقعه الوطني والواقع العربي.

ولا بد من القول: إن ربط التزام السياب القومي المزعوم بانفصاله عن الحزب الشيوعي فيه شيء كثير من مجانبة الحق، والتجنِّي على المنتمين لهذا الحزب من الشعراء العرب ولاسيما العراقيين، فلم يمنع انتماء الشعراء لهذا الحزب أن يكتبوا

قصائد تمتد إلى أفق العروبة، وما يجري في الوطن العربي، وليست تجربة الجواهري، ومظفر النواب، وسعدي يوسف -على سبيل المثال- ببعيدة عنا.

ويمكن الآن أن نرفض بهدوء- وبلا مناقشة- حماسة بعض الباحثين الذي يعدُّ "ديوان (أنشودة المطر) الديوان القوميّ(!) للسياب، والذي احتوى قصائد قومية بارزة...مما يشير إلى أن السياب له موقف فكري شامل من المسألة القومية"!![٤٤]، كما نرفض اندفاع غيره إلى تأكيد الحسّ القوميّ لدى السياب- وكأنه متهم يسعى الباحث إلى تقديم(أدلة براءته)- بِعدِّ قصيدتَي (غريب على الخليج)، و(عرس في القرية) من القصائد القومية[٤٥]، على الرغم من خلوهما تماماً من أيِّ بعد قوميٍّ لا تصريحاً، ولا تلميحاً.

إنّ كلّ من قرأ قصيدة(غريب على الخليج) يعرف أنها من القصائد التي تُجلِّي مشاعر حب الوطن، والحنين إليه، ولا شيء فيها أعلى من صراخ الشاعر المختلط بالنحيب(عراق.. عراق) إذ يعلو على هدير البحر، وضجيج السفن بما يشبه استغاثة اليائس:

"جلس الغريب يسرّح البصر المحيّر في الخليج

ويهدّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نشيج

أعلى من العبّاب يهدر رغوه ومن الضجيج

صوت تفجَّر في قرارة نفسيَ الثكلى: عراقْ

كالمدّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي: عراق

والموج يعول بي: عراق، عراق، ليس سوى عراق!

البحر أوسع ما يكون وأنت أبعد ما تكون

والبحر دونك يا عراق.“ (٤٦)

ومن العجيب أن ذلك الحنين يصدر عن الشاعر، وهو في (الكويت) أقرب بلد عربي للعراق، ولا شيء يجعل أهله مختلفين عن أهل السياب في البصرة، ولكن الباحث يصر على أن القصيدة(قومية)!!. وأعجب منه ما يقوله عبد الجبار البصري من أنّ(غريب على الخليج) في مقدمة قصائد السياب المعبرة عن تحوله إلى(المرحلة القومية!!)، وهو يستعرض مقاطع القصيدة كلها، فلا يورد إشارة واحدة إلى(قضية) القومية هذه!(٤٧) . ولعل عنوان القصيدة نفسه – وهو ما لم يُلتفت اليه – يتناقض تماماً مع قولهم بقومية القصيدة فكيف يشكو القومي(غربته) وهو في كنف إخوته العرب، وفي بلاده (العربية)؟!

ولا تختلف قصيدة (عرس في القرية) عن سابقتها في كونها لا تتعلق بأيِّ شأن قومي، فهي تدور على موضوع الفقر الذي يدفع بالفتاة(نوار) بنت القرية إلى القبول بالزواج من رجل ثري من المدينة:

حلوة أنت مثل الندى يا عروس

يا رفاقي سترنو إلينا نوار

من علٍ في احتقار

زهّدتها بنا حفنة من نضار

خاتم أو سوار

أقفر الريف لمّا تولّت نوار

بالصبابات يا حاملات الجرار

رحن واسألنها يا نوار

هل تصيرين للأجنبي الدخيل[٤٨]

وسيجد من يقرأ القصيدة أنّها في مستوى البناء الفني تعتمد (الفولكلور) أساساً للتعبير، وفي مجال الرؤية تنطلق من الوعي الشعبي العراقي.

الخاتمة

لقد حاول هذا البحث أن يثبت وهم القائلين بكتابة السياب قصائداً تعبر عن انتماء قومي، وسعى إلى إثبات ذلك بعرض القصائد التي بنى عليها هؤلاء الباحثون والنقاد أحكامهم.

وليس في البحث العلمي مجاملة أو محاباة، ومن هنا نرى أن كثيراً من الباحثين والنقاد- بحسب ما كشفت عنه هذه الدراسة- يعانون سوء فهم النص(المكشوف) الذي لا يحتمل اختلافاً، وليس فيه ما يدعو إلى التأويل؛ لوضوحه، أو أنهم لم يقرؤوا هذه النصوص، وأخذوا بأحكام غيرهم، فجَرَّ بعضُهم بعضاً إلى خَطَإٍ لا يُقبَل من باحث مدقق، أو ناقد أصيل!.

إن من يقرأ السياب قراءة دقيقة واعية لا يمكن إلا أن يلمح بوضوح أنّه شاعر وطنيّ أولاً، وقبل كل شيء، ولن يحتاج قارئ السياب بذل جهد مضنٍ كي يجد في شعره حضور العراق برموزه الحضارية، وبتاريخه القديم والمعاصر، وبواقعه المعقد الذي هو مشتبك صراع، ومجمع نقائض، وهذا كله يدعو إلى القول بـ(وطنية) السياب انتماءً وولاءً وانشغالاً بهموم، وليس في هذا نفي لعروبته وإنسانيته بحال من الأحوال.

ومن الإنصاف القول: إن أكثر الباحثين والنقاد موضوعية ورصانة في تشخيص انتماء السياب السياسيَّ، وفهم تجربته السياسية اعتماداً على منهاج علمي في البحث، وقراءة واعية للنصوص، هو إحسان عباس الذي كان حذراً ودقيقاً حتى في تسمية القصائد التي وجد فيها غيره- بلا تحفظ- ما يؤكد (التزام)السياب، أو(انتماءه) القوميّ، فقال عنها «القصائد التي يجوز تسميتها بالقصائد العربية»[٤٩].

ومن الإنصاف كذلك أن نقول: إن ربط هذه القصائد- إذا أخذنا بأنّها قصائد تعبر عن التزام قوميٍّ- بانفصال بدر عن الحزب الشيوعي فيه إجحاف بحق عدد كبير من الشعراء العرب الذين كتبوا عديد القصائد المناصرة للقضية الفلسطينية، وغيرها من القضايا العربية، وهم شيوعيون يقيناً لا ظناً!.

الهوامش

١-تنظر: البيبلوغرافيا الملحقة في كتاب: الأسطورة في شعر السياب: ص١٩٩-٢٢٧، وقد زادت قائمة الكتب والبحوث والمقالات بصورة لافتة للنظر في كتاب: الموضوعية البنيوية-دراسة في شعر السياب: ص٤١٩-٤٣١، الذي صدر بعد خمس سنوات من صدور الكتاب السابق، ثم صدر كتاب: بدر شاكر السياب في المراجع العربية والمعربة، بعد أكثر من ربع قرن على إصدار الكتاب السابق، ولكنه لم يُثبت عشرات الكتب والرسائل الجامعية والمقالات التي كتبت في العراق وحده، فما بالك بما كتب ونشر خارج العراق، وما دوِّن على مواقع(الإنترنت)؟!

٢-ينظر: الخطاب النقدي حول السياب، وهو ممّا لم يُذكر في بيبلوغرافيا د. المرزوك!!

٣-الطريق إلى جيكور: ص ٧٣، وليس الأمر كذلك عند التدقيق، كما سيظهر خلال البحث!

٤-ينظر: التطلع القومي عند المتنبي، جاسم محسن عبود، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٧. وينظر: (الرفض في شعر الشريف الرضي، حميد مخلف الهيتي)، و(الرؤى الاجتماعية والأخلاقية في شعر الشريف الرضي، د. محمود عبد الله الجادر) ضمن كتاب: الشريف الرضي –دراسات في ذكراه الألفية، دار آفاق عربية، بغداد،١٩٨٥.

٥-ينظر: بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وشعره: ص٨٩-٩٠. و هناك من يقول بتوجه السياب القومي، ولكنه يرى أن هذا التوجه سطحيٌّ. ينظر: شعر بدر شاكر السياب-دراسة فنية وفكرية: ص ٣٧.

٦- بدر شاكر السياب، حياته وشعره: ص٨٠.

٧-النظم الإبداعي عند بدر شاكر السياب: ص١٧. ولولا أنّ ما ورد هنا(فرضية) أخرى لا دليل عليها، ولولا أنّ المؤلف ممّن يقولون بـ (قومية) السياب لأغناني عن البحث، فالقصائد التي قيل فيها بتحوّل السياب القومي في ضوئها كُتِبت في هذا السنة، والسنوات الأربع التي قبلها عدا (ربيع الجزائر) التي كُتِبت في سنة ١٩٦٢!

٨-ديوان بدر شاكر السياب: م١/ ص٢٧٤. وسأشير إلى المصدر في الهوامش الآتية بـ(الديوان) اختصاراً.

٩-مواقف في شعر السياب: ص ٣٦-٣٧.

١٠-م.ن: ص٣٧

١١-م.ن:ص ٣٧.

١٢-الطريق الى جيكور؛ ص ٧٢-٧٣ ، وآمل أن يلتفت القارئ الكريم إلى تفسير هذا الناقد لكتابة الشاعر قصائداً تتمحور(حول إشكالية الوعي العربي الجديد) بزواج السياب، ليتأكد من المستوى الذي يمكن أن يصل إليه الناقد حين يكون محكوماً بانتمائه السياسي و(الآيديولوجي)!، وهذا الكتاب هو آخر ما كتبه عن السياب، وقد سبقه كتاب(السياب رائد الشعر الحر)، وكتاب (ساعات بين التراث والمعاصرة) الذي ضم بحثاً عن السياب يذكر فيه قصائد(قومية) أخرى للشاعر سنشير إليها لاحقاً!

١٣- القديم والجديد في الشعر العربي الحديث :ص ٢٧٠، وستتضح دلالة علامتي التعجب التي وضعناهما عند عرض المقطع الذي بُني عليه كون السياب(قوميا) في هذه القصيدة، وتجدر الإشارة إلى أن الدكتور واصف أبو الشباب لم يلتفت إلى تاريخ القصيدة، وحسبها تتكلم على(عبد الكريم قاسم) فقال مجارياً القوميين العراقيين بأن الشاعر ضد السلطان الظالم الديكتاتوري!!.

١٤-مواقف في شعر السياب: ٤٥، وعلامات التعجب تعني رفضنا أحكاماً مرتبكة بلغة نقدية مضطربة.

١٥- ينظر: الموضوعية البنيوية- دراسة في شعر السيّاب؛ ص٣٦٩.

١٦- الديوان : م٢/ ص٢١.

١٧- الديوان: م٢/ ص٢٢.

١٨-بدر شاكر السياب- دراسة في حياته وشعره:ص ٢٢٠.

١٩- الديوان: م٢/ ص١٦١- ١٦٢.

٢٠-بدر شاكر السياب- دراسة في حياته وشعره:ص ٢٢١- ٢٢٢.

٢١- الديوان: م٢/ ص ١٦٤.

٢٢- الديوان: م٢/ ص ١٣٣- ١٣٤.

٢٣-ينظر: الوطن في شعر السياب-الدلالة والبناء:ص ٦٤-٦٧.

٢٤-م.ن:ص ٦٦-٦٧.

٢٥- الديوان: م٢/ ص ١٤١.

٢٦- الديوان: م٢/ ص ٥٤- ٥٥.

٢٧- الديوان: م٢/ ص ٥٥.

٢٨- الديوان: م٢/ ص ٥٨.

٢٩- أدب المقاومة بين الأسطورة والتاريخ:ص٣٥.

٣٠-الثورة الجزائرية في الشعر العراقي:ص١٩٤.

٣١- الديوان: م٢/ ص ٢٩٠.

٣٢- الديوان: ص٢٩٠.

٣٣-هذه القراءة لا تمنع من قراءة أخرى محتملة، وهي أنّ السياب يحقّق رؤية عميقة، وهو ينفذ إلى حقيقة الحرب التي تحيل الحياة حطاماً.

٣٤- الديوان: م٢/ ص١٤١.

٣٥-الالتزام في الشعر العربي:ص ٤٣٢.

* هل يُعقل أن يتمثّل الله في القومية العربية؟! وربّما يصحّ هنا السؤال: هل يكون لـ(أمة العرب) إلهٌ آخر لا يراه إلاّ القوميّون العرب وحدهم؟!.

٣٧- م. ن: ص٤٤٠- ٤٤١.

٣٨- تحليل قصيدة (في المغرب العربي) للشاعر بدر شاكر السياب:موقع (الحوار المتمدن) الإلكتروني.

٣٩-م.ن.

٤٠- م.ن.

٤١- ينظر: بدر شاكر السياب وريادة التجديد في الشعر العربي الحديث: ص١٦٥- ١٦٦.

٤٢- ينظر الديوان: م٢/ ص٥٩- ٦٤.

٤٣-بدر شاكر السياب-دراسة في حياته وشعره : ص٢٢٠- ٢٢١.

٤٤- التيار القومي في الشعر العربي الحديث:ص ٢٠٦.

٤٥-ينظر: مواقف في شعر السياب: ص٤٤.

٤٦- الديوان: م٢/ ص٤.

٤٧-ساعات بين التراث والمعاصرة:ص ٢١، وهذه القصيدة، وقصيدة(عرس في القرية) لا ذكر لهما في(قوميات السياب) التي ذكرها في (الطريق إلى جيكور)، المتأخر في الصدور بمدة ليست قصيرة، فهل تنبَّه إلى وهمه في الكتاب السابق؟

٤٨- الديوان: م٢/ ص٢٦.

٤٩-بدر شاكر السياب- دراسة في حياته وشعره:ص ٢٧٠.

المصادر والمراجع

١. أدب المقاومة بين الأسطورة والتاريخ- دراسة نقدية، د. نذير العظمة، دار علاء الدين- دمشق، ٢٠١٥.

٢. الأسطورة في شعر السياب، عبد الرضا علي، دار الحرية للطباعة-بغداد، ١٩٨٧.

٣. الالتزام في الشعر العربي، د. أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين- بيروت، ١٩٧٩.

٤. بدر شاكر السياب، حياته وشعره، عيسى بلاطة، دار النهار للنشر- بيروت، ط٣، ١٩٨١.

٥. بدر شاكر السياب، دراسة في حياته وشعره، د. إحسان عباس، دار الثقافة- بيروت، ط٢-١٩٧٢.

٦. بدر شاكر السياب في المراجع العربية والمعرّبة، د. صباح نوري المرزوك، دار النشر للجامعات- القاهرة، ٢٠١٢.

٧. بدر شاكر السيّاب وريادة التجديد في الشعر العربيّ الحديث، سامي سويدان، دار الآداب-بيروت، ٢٠٠٢.

٨. التطلع القوميّ عند المتنبي، جاسم محسن عبود، منشورات وزارة الثقافة والإعلام-بغداد، ١٩٧٧.

٩. التيار القومي في الشعر العربي الحديث، د. ماجد أحمد السامرائي، دار الحرية للطباعة- بغداد، ١٩٨٣.

١٠. الثورة الجزائرية في الشعر العراقي(القسم الأول)، عثمان سعدي، دار الحرية للطباعة- بغداد،١٩٨١.

١١. الخطاب النقدي حول السياب، د. جاسم حسين سلطان الخالدي، دار الشؤون الثقافية العامة-بغداد، ٢٠٠٧.

١٢. ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة- بيروت (مجلدان)، ٢٠٠٥.

١٣. ساعات بين التراث والمعاصرة، عبد الجبار داود البصري، منشورات وزارة الثقافة والفنون-بغداد، ١٩٧٨.

١٤. الشريف الرضي- دراسات في ذكراه الألفية، جمع من الباحثين، دار آفاق عربية-بغداد، ١٩٨٥.

١٥. شعر بدر شاكر السياب-دراسة فنية وفكرية، حسن توفيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩.

١٦. الطريق إلى جيكور، عبد الجبار داود البصري، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، ٢٠٠٢.

١٧. القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، د. واصف أبو الشباب، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت،١٩٨٢.

١٨. مواقف في شعر السيّاب، قيس كاظم الجنابي، مطبعة العاني-بغداد،١٩٨٨.

١٩. الموضوعية البنيوية، دراسة في شعر السيّاب، د. عبدالكريم حسن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، ١٩٨٣.

٢٠. النظم الإبداعي عند بدر شاكر السياب، د. فاخر صالح ميّا، دار بصمات- دمشق، ٢٠١١.

٢١. الوطن في شعر السيّاب/ الدلالة والبناء، د. كريم مهدي المسعودي، دار صفحات للدراسات والنشر-دمشق، ٢٠١١.

٢٢. www.alhewar.org وفيه: تحليل قصيدة(في المغرب العربيّ) للشاعر بدر شاكر السياب، فاطمة فائزي، تاريخ النشر ١٦/ ١٠/ ٢٠١١.